الشريف الإدريسيّ
جغرافيّ موسوعيّ عالميّ
في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

إبراهيم خوري*

الموسوعات الجغرافيّة العالميّة قبل الإدريسيّ

الموسوعات الجغرافيّة القيِّمة نادرة، جعلها الباحثون أربعًا فقط حتّى عصر الإدريسيّ.

أ ـ أوّلها «جغرافية» إيراتوستينُس، GEOGRAPHIKA. وإيراتوستينُس (حوالى ٢٨٤ق.م. ـ حوالى ١٩٢ ق.م.) فلكيّ وجغرافيّ وعالِم رياضيّات وفيلسوف يونانيّ، يهمّنا منه عبقريّته الجغرافيّة التي وَضعت تسمية الجغرافية، وأسهمت بقياس محيط الأرض بدقّة، وجادت بكتابة موسوعة موسومة الجغرافية، عندما كان قيِّمًا على مكتبة الإسكندريّة الشهيرة في عهد بطلميوس الثالث. واستهلّ هذا العالِم الفذّ مؤلَّفه بنقد تصانيف الجغرافيِّين الذين سبقوه نقدًا علميًّا، ثمّ عرض جغرافيته الفلكيّة، ووصف جميع البلدان المعروفة في القرن الثاني قبل الميلاد.

ب ـ وحملت الموسوعة الثانية عنوان الجغرافية أيضًا، وألّفها بُومبُونيُوس ميلا الرومانيّ (القرن الأوّل الميلاديّ) DE SITU ORBIS ou CHRONOGRAPHIE، ووصف فيها سواحل البحر المتوسّط، والبحر

(*) باحث ومؤلّف اختصاصيّ في الجغرافية عند العرب.

الأسود، وبحر قزوين، وشيء من سواحل بحر الظلمات. وعاش وفق عادات شعوب تلك الأصقاع، وتحدّث فيه عمّا يقرب من ١٥٠٠ مدينة.

ج ـ كذلك سُمّيت الموسوعة الثالثة الجغرافية GEOGRAPHIKA. وقد صنّفها سترابون اليونانيّ (حوالى ٦٠ ق م ـ بين ٢١ و٢٥ ب م) للطبقة المثقّفة الرومانيّة اليونانيّة. واهتمّ فيها بأعمال إيراتوستينس وهيبارخس وبعض المؤرّخين، وأبرز فيها العلاقة بين البشر وبين وسطهم الطبيعيّ، فتفوّق على سلفَيْه، وتبيّن للمحقّقين حديثًا أنّه مرّ خلفه بطلميوس في مجال الجغرافية.

د ـ وبطلميوس (كلوديوس) فلكيّ وعالم رياضيّات وجغرافيّ يونانيّ (حوالى ٩٠ ـ حوالى ١٦٨) مؤلّفاته كثيرة ومتنوّعة، أبرزها في بحثنا موسوعته المسمّاة الجغرافية، العائدة إلى القرن الثاني الميلاديّ. وقد تناول فيها وصف العالم الرومانيّ اليونانيّ. وما حوله من بلدان إلى جانب مواضيع الجغرافية الفلكيّة.

ويتّضح من هذا العرض السريع أنّ الموسوعات الجغرافيّة، في مفهوم العصور القديمة والوسيطة، تصف العالم المعروف في زمنها، وتدوّن معطيات الجغرافية الفلكيّة. وهذا ما فعله الشريف الإدريسيّ في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي أصبح الموسوعة الخامسة حسب التسلسل الزمنيّ وعلى المستوى العالميّ.

لكن قبل الكلام عن هذا الكتاب الشامل وتحليله، يحسن أن يطّلع القارئ على التعريف بالشريف الإدريسيّ نفسه، وبما يتعلّق بحياته وبمؤلّفاته، ودراساتها وطبعاتها.

الشريف الإدريسيّ «سترابون العرب»
٤٩٣هـ/١١٠٠م ـ ٥٦٠هـ/١١٦٤م

ورد اسم الشريف الإدريسيّ بصيغ مختصرة وأخرى مطوّلة، ولُقّب بالقاب شتّى، وكُنّي بأبي عبدالله، وولد في المغرب الأقصى، ونشأ في الأندلس، وأمضى معظم حياته في جزيرة صقلّية.

أ ـ صِيَغ اسمه وألقابه وكُناه

جاء اسم الإدريسيّ بصيغة «أبو محمّد، عبدالله، محمّد بن محمّد بن عبدالله بن إدريس» في مخطوطة أكسفورد لنزهته، وبصيغة «محمّد بن محمّد بن عبدالله بن إدريس الحسينيّ» في مخطوطة أنس المهج وروض الفرج. وصُدِّرت طبعة نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بعناية المعهد الجامعيّ الشرقيّ في نابولي والمعهد الإيطاليّ للشرقَيْن الأوسط والأقصى، باسمه على الوجه التالي: «محمّد بن محمّد بن عبدالله بن إدريس الحمّودي الحسني». وفصّل صلاح الدين الصفدي اسمه في كتابه الوافي بالوفيات، فذكر أنّه «محمّد بن محمّد بن عبدالله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمّود بن ميمون بن أحمد بن عليّ بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن عليّ (بن أبي طالب)، الشريف الإدريسيّ».

ولقّبه صلاح الدين الصفدي (خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي، +٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) بالإدريسي، نسبة إلى جدّه إدريس الأوّل مؤسّس دولة الأدارسة في مراكش، وابن خلدون بالحمّودي، نسبة إلى جدّه حمّود، مؤسّس الدولة الحموديّة في جنوب الأندلس، وابن بشرون (عثمان بن عبد الرحيم الصقلي، +٥٦١/١١٦٦م) بالقرطبي، نسبة إلى مدينة قرطبة التي تلقّى علومه فيها. ويلقّب أحيانًا بالحسني وبالطالبيّ نسبة إلى الحسن وإلى أبي طالب. ويسمّيه المعاصرون سترابون العرب.

وكُنّي بأبي عبدالله جريًا على عادة المغاربة الذين يكنّون بهذه الكنية كلّ مَن يُسمّى محمّدًا عندهم.

ويتّضح من هذا العرض أنّ الإدريسيّ ينتسب إلى الأدارسة العلويّين، من ذريّة عليّ بن أبي طالب، الذين ينتمون بالتالي إلى السلالة النبويّة (الأشراف)، ويتمسّكون بحقّهم بالخلافة. لذلك سمّي الشريف الإدريسيّ.

ب ـ مولده ووفاته وأسفاره

ولد الإدريسيّ في المغرب الأقصى، في مدينة سبتة أو في مدينة تطوان

الواقعة جنوب، سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م [illegible] الورد في [illegible] وقد جمع الباحثين هذا التاريخ، واعتمدوه في دراستهم له. ويبدو أنّه لقي وجه ربّه في صقلّية أو سنة سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م. وحفظ القرآن والقصائد الشهيرة في صغره في سبتة، ثمّ انتقل إلى قرطبة حيث ساعدته البغيّة الباقية من أجداده الأدارسة في إتمام تحصيله شتّى العلوم.

ومال الإدريسيّ إلى الأسفار في سنّ مبكّرة، فأخذ يجوب آسية الصغرى منذ سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، أي في السادسة عشرة من عمره، مثلما يستخلص من كلامه عن القسطنطينيّة وأعمالها حيث يقول: «ووهم أهل الأندلس في أصحاب الرقيم حين زعموا أنّ أصحاب الكهف هم الشهداء الذين هم في مدينة لوشة. قال المؤلّف: رأيت القوم في هذا الكهف عام عشرة وخمس مائة، فنزلنا إليهم على فم بئر عميقة نحوًا من قامة وزائد، ثمّ مشينا فيها في سرب فيه ظلمة، خطوات قلائل، ثمّ اتّسع الغار، فألفينا هناك الموتى، وهم رقود على جنوبهم، وعددهم سبعة، وعند أرجلهم كلب ملتو، وقد ذهب لحمه وجلده، وبقيت عظامه في فقاراته كما هي في الحياة. ولا يعلم أحد في أيّ زمن دخلوا هذا الكهف، أو أُدخلوا إليه. وأوّل رجل يلقى منهم، له خلق عظيم، وله رأس كبير. وأهل الأندلس يقولون إنّ هؤلاء القوم الذين في هذا الكهف موتى، هم أصحاب الكهف. والصحيح أنّ أصحاب الكهف هم الذين قدّمنا ذكرهم»[1]. والمؤلّف المقصود في هذه الفقرة هو الإدريسيّ، الذي شاهد الوضع عيانًا ووصفه بدقّة، وبالتالي مرّ في تلك الأرجاء. ولا يستغرب تجواله في الأندلس، ولا وصوله إلى لشبونة، حين يقول في حديثه عن حصن المعدن القائم على ضفّة نهر تاجه مقابل مدينة لشبونة: «وعلى ضفّة النهر من جنوبه، قبالة مدينة لشبونة، حصن المعدن. وسمّي بذلك، لأنّه عند هيجان البحر، يقذف هناك بالذهب والتبر. فإذا كان زمن الشتاء، قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد، فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء. وهو من عجائب الأرض، وقد رأيناه عيانًا»[2]. كذلك يتحدّث الإدريسيّ عن مجاز الزقاق

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطاليّة، ص ٨٠٣.
(٢) المرجع ذاته، ص ٥٤٧.

(مضيق جبل طارق) وعن وقوعه بين رصيفَين، ويقول: «فأمّا الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس، فإنّه يظهر في أوقات صفاء البحر... وقد رأيناه عيانًا، وجرينا على طوله بطول الزقاق مع هذا البناء»[1]. ولا مجال للشكّ في تجواله في المغرب من أقصاه إلى أدناه، إذ يقول عن أغمات مثلاً: «ومدينة أغمات مدينة يكنفها جبل درن كما قلنا. فإذا كان زمن الشتاء، تحلّلت الثلوج النازلة بجبل درن، فيسيل ذوبانها إلى نهر أغمات. وربّما جمد في داخل المدينة... وهذا شيء عايناه بها غير مرّة»[2]. ويقول عن قسنطينة: «وهي أعجب ما رأيناه من البناء»[3]، وعن القيروان: «وهي الآن، في وقتنا هذا، على جزء منها سور تراب»[4]، وعن بونة: «وافتتحت بونة... وهي الآن في ضعف وقلّة عمارة»[5]. وقس على ذلك.

ويرجَّح أنّ أسفار الإدريسيّ تمّت قبل ذهابه إلى جزيرة صقلّية.

ج - حياة الإدريسيّ في جزيرة صقلّية

مع ذلك، لم تتحدّث المراجع العربيّة عن الإدريسيّ، ولا عن ترحاله في الأندلس أو المغرب أو آسية الصغرى، أي أنّه لم يسترع انتباه الأوساط العلميّة، ولم يشتهر فيها عندئذٍ كرحّالة، رغم تنقّله في كلّ تلك الأصقاع. ولاحظ كراتشكوفسكي أنّه أنهى تأليف كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق في صقلّية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م بعد أن عمل في كتابته مدّة طويلة استمرّت ١٥ عامًا. وهذا يعني أنّه وجد في تلك الجزيرة منذ سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م (٥٤٨ - ١٥ = ٥٣٣)، أي منذ كان عمره ٤٠ سنة، وبالتالي أصبح نضيج الرأي.

وفي صقلّية رعاه الملك النورماندي روجّار الثاني، وأمّن له سكنًا مريحًا، ووصله بمال وافر، ليتفرّغ لنشاطه الفكريّ، فنبغ الإدريسيّ، لكن لم تذكره إلاّ

(١) المرجع ذاته، ص ٥٢٦ - ٥٢٧.
(٢) المرجع ذاته، ص ٢٣١.
(٣) المرجع ذاته، ص ٢٦٦.
(٤) المرجع ذاته، ص ٢٨٤.
(٥) المرجع ذاته، ص ٢٩١.

مراجع عربية محدودة جدًّا، وباختصار شديد جدًّا. وأثارت هذه الأوضاع تساؤلات في أذهان الباحثين، نتوقف عند اثنين منها: لماذا جاء الإدريسيّ إلى صقلّية؟ ولماذا قلّت الإشارة إليه في الكتب العربيّة؟

يمكن إعطاء تفسيرات شتّى، خالية من التعقيد، لذهاب الإدريسيّ إلى صقلّية. فقد يكون ولعه بالأسفار هو الذي دفعه إلى محاولة التعرُّف عليها، مثلما حثّه من قبل على التجوال في الأندلس والمغرب وآسية الصغرى. ويحتمل أن يكون انتماؤه إلى آل حمّود من أسرة الأدارسة، قد أوحى له زيارة أقربائه من البيت الحمّوديّ النازلين في جرجنت وقصريانة، وهم على ما هم عليه من جاه عظيم ونفوذ كبير، داما حتّى الربع الأخير من القرن السادس الهجري (٥٨٠هـ/١١٨٥م) على حدّ تأكيد ابن جبير، كما فعل من قبل عندما قصد قرطبة طالبًا العلم، معتمدًا على إعانة الأدارسة فيها له. وربّما تعمّد الوصول إليها طمعًا برعاية النورمانديّين للعلم والعلماء مهما كان معتقدهم الدينيّ، ولتحقيق ما في ذهنه من مشاريع مستقبليّة. أخيرًا، لعلّ غريزة البقاء أبعدته عن مخاطر وجوده في وسط لا يستسيغ حكّامه بقاء رجل علويّ طامع بالخلافة وبالسلطة المحلّيّة كمرحلة انتقاليّة للحصول عليها.

مهما يكن، أتاح له وجوده في صقلّية في عهد روجّار الثاني فرصة الالتقاء بهذا الملك العظيم بطريقة ما، فتعارفا، وتفاهما، وتوطّدت العلاقة بينهما، وتمتّع الإدريسيّ بجود هذا العاهل الكريم وتشجيعه، فكتب وأجاد، ونقل وأفاد.

وتباينت الآراء في تأويل ندرة ورود اسم الإدريسيّ في المصادر العربيّة. فصحيح أنّ الصفدي ترجم له باقتضاب في الوافي بالوفيات، وإنّ ابن إصيبعة أعطى نبذة صغيرة عنه في عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، وفي ماعداهما خلت كتب التراجم من ذكره. نقول خلت، ولا نقول تجاهله مؤلّفوها، أو أهملوه، عامدين متعمّدين، تعبيرًا عن شجبهم تعاونه مع ملك نصرانيّ. فهذا شطط جنح إليه محمّد الفاسي وأحمد مختار العباديّ، خلافًا لواقع الحال الشخصيّ، المتعلّق بالإدريسيّ نفسه، وللواقع التاريخيّ، الخاصّ بعلاقات النصارى والمسلمين في جزيرة صقلّية. فالإدريسيّ أمضى شبابه في الأسفار في الأندلس والمغرب وآسية الصغرى، بعيدًا عن أنظار الأوساط العلميّة. ولم يدوّن رحلاته

ويوزّعها مخطوطات ليسمح به الجميع. وعاش في تلك غرناطة في صقلّية، قبل أن تنتشر نسخ تصانيفه المخطوطة، ثم تصل أخباره إلى أصحاب التراجم. ولمّا أصبحت كتبه في متناول الأيدي. أخذ عنها ابن خلدون، وابن فضل الله العمري، والقلقشندي، وسواهم[1] وأثنوا عليه، وصار علمًا. من جهة أخرى، كانت العلاقات جيّدة جدًا بين نصارى صقلّية ومسلميها من العرب وغير العرب، في عهد النورمانديّين، فلم يفرّق الدين بينهم، بل تعاونوا في إدارة شؤون الدولة النورمانديّة، وعُيّن المسلمون في وظائف البلاط، وخدموا في الجيش ضبّاطًا وجنودًا، وصار بعضهم عمّالاً للملك روجار الثاني في فتوحاته الإفريقيّة (عامل مدينة بونة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م من آل حمّاد)[2]. وعرف باحثون عرب كثيرون هذه الحقائق، منهم عبدالله كنون وزكي محمّد حسن وحسين مؤنس. فرفضوا الذريعة الدينيّة، وأنصفوا الإدريسيّ ومسلمي صقلّية.

ومهما اختلفت الآراء في هذا الشأن أو ذاك، فلا بدّ لنا أن نجمع على أنّ شهرة الإدريسيّ انطلقت من بلاط روجار الثاني، وطبّقت الآفاق بفضل رعايته. ولولا البلاط النورمانديّ ورعايته، لما أصبح الإدريسيّ أحد أعلام الجغرافية العربيّة/ والعالميّة في القرون الوسطى، ولما استطاع أن يخلّف لنا العديد من المؤلّفات القيّمة في الجغرافية وفي علوم أخرى.

د ـ مؤلّفات الإدريسيّ، دراساتها وطبعاتها

١ ـ لمحة عن كتب الإدريسيّ

يدلّ ما وصلنا، أو ما عرف حتّى أيّامنا الحاضرة، من تصانيف الإدريسيّ أنّ ثقافته كانت واسعة جدًّا. فهو طبيب، ألّف كتاب الأدوية المفردة أو كتاب المفردات، وسمّاه الجامع لأشتات النبات. وهو جغرافيّ، صنّف كتاب نزهة

(١) منهم ابن سعيد المغربيّ (٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، وأبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وابن الأكفاني (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، والمقريزي (تقي الدين ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، وابن الوردي (٨٦١هـ/١٤٥٧م)، والحميري (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) والسيوطي (٩١١هـ/١٥٠٥م)، ولبون الأفريقيّ (٩٦٠هـ/١٥٥٥م).

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطاليّة، ص ٢٩١.

المشتاق في اختراق الآفاق المعروف أيضًا بـ كتاب روجار أو الكتاب الروجاري، وقدّمه إلى روجار الثاني، وكتاب روض الأنس ونزهة النفس. المفرد وقدّمه للعلّامة، نحل روجار وخلعه ونسب إليه أو لابنه الأكبر محمّد، كتاب أنس المهج وروض الفرج أو روض الفرج ونزهة المهج، الشهير بـ الإدريسيّ الصغير أمّا كتاب جني الأزهار من الروض المعطار، فمختصر لنزهة المشتاق، قام بتلخيصه شهاب الدين أحمد المقريزيّ. وهو كرتوغرافيّ رسم العديد من المصوّرات والخرائط، ومنها خريطة منابع النيل أخيرًا نسب إليه شعر رقيق يمّ عن شاعريّة حقّة، لم يجمع في ديوان، مثاله:

ليت شعري أين قبري ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشـ ـتاق في برّ وبحر
وخبرتُ الناس والأر ض لدى خير وشرّ
لم أجد جازًا ولا دا رًا كما في ضيّقة صدري
فكأنّي لم أسر إلاّ بيت أو بقفر

ويهمّنا الآن من كتبه الجغرافيّة، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ودراساته وطبعاته.

٢ ـ دراسات كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وطبعاته

أدرك الباحثون، بعد اطّلاعهم على كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ما له من قيمة فريدة ومكانة وحيدة في الأدب الجغرافيّ العربيّ والعالميّ. فعنوا به على نطاق واسع وفي وقت مبكر، ودرسوه دراسة كلّيّة وجزئيّة. وقوّمه كبار المفكّرين العرب والمستشرقين في شتّى العصور. فكيف كان ذلك؟

دراسات «نزهة المشتاق» وطبعاته الكاملة

فمن الدراسات شبه الكاملة، دراسة جرت في نابلس في فلسطين، لخّصت كتاب النزهة تلخيصًا سيّئًا سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٨م، وطبعته باللغة

العربيّة في روما سنة ١٥٩٢ في مطبعة آل مديتي بعنوان نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق.

وفي عام ١٦١٩، قام العالمان اللبنانيّان المارونيّان يوحنّا الحصرونيّ وجبرائيل الصهيونيّ بترجمة مختصر نابلس إلى اللاتينيّة ونشراه في باريس، وسمّياه جغرافية النوبيّ.

وترجم أميديه جوبير النزهة عن مخطوطتيّ باريس رقم ٢٢٢١ب، و٢٢٢٢آ، ونشرت له الجمعيّة الجغرافيّة الفرنسيّة ترجمته في جزئيْن، عام ١٨٣٦ و١٨٤٠. وأثنت الأوساط العلميّة في البدء على جهده، ثمّ اكتشف دوزي ودي خويه فيها أخطاءً جسيمة، نشراها في ليدن سنة ١٨٦٦، فانصرف العلماء عن الاعتماد عليها.

وقرّر المعهد الجامعيّ الشرقيّ في نابولي والمعهد الإيطاليّ للشرق الأوسط والأقصى إصدار طبعة كاملة لنزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اشترك في تحقيقها لفيف من المستشرقين والباحثين[1] معتمدين على مخطوطتيْ المكتبة الوطنيّة في باريس، ومخطوطتيْ أكسفورد، ومخطوطة صوفيا، ومخطوطة إستنبول، ومخطوطات القاهرة والموصل وليننغراد. وقد نشرت هذه الطبعة تباعًا في السبعينات في كراريس على الوجه التالي:

سنة النشر	رقم الكرّاس	مضمونه
١٩٧٠	١	المقدّمة والإقليم الأوّل بأجزائه العشرة
١٩٧١	٢	الإقليم الثاني بأجزائه العشرة
١٩٧٢	٣	الأجزاء الأربعة الأولى من الإقليم الثالث
١٩٧٤	٤	الأجزاء ٥ ـ ١٠ من الإقليم الثالث
١٩٧٥	٥	الأجزاء الأربعة الأولى من الإقليم الرابع

(١) لا ريب أنّ تحقيق كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ونشره وطبعه عمل عظيم، أسهم بإنجازه مستشرقون عالميّون كبار ومفكّرون عرب ومسلمون قديرون. وسوف تسهل الإفادة منه كثيرًا، متى تمّ وضع فهارس له، ووزّعت أعلامه الجغرافيّة للضبرطة على بلدانها، وصارت في متناول الباحثين.

سنة النشر	رقم الكرّاس	مضمونه
١٩٧٦	٦	الأجزاء ٥ ـ ١٠ من الإقليم الرابع
١٩٧٧	٧	الإقليم الخامس
١٩٧٨	٨	الإقليمان السادس والسابع

دراسات «نزهة المشتاق» وطبعاته الجزئية

وأجريت دراسات جزئيّة كثيرة، تناولت بعض بلدان نزهة المشتاق، وطُبعت قبل نشر مؤلّف الإدريسيّ كاملاً بإشراف ومبادرة المعهدَيْن الإيطاليَّيْن السابقَيْن، نكتفي بتعداد بعضها وهي:

١ـ ج.م. هارتمان، J.M.HARTMANN، إفريقية في كتاب الإدريسيّ، تونجن، ١٧٩٦.

٢ـ ج.أ. كوندة، J.A.CONDE، وصف الشريف الإدريسيّ لإسبانية، ١٧٩٩.

٣ـ ر. دوزي، و م.ج. دي خويه REINHART DOZY et MICHAEL JAN DE GOEGE، وصف الإدريسيّ لإفريقية وإسبانية، ليدن، ١٨٦٦.

٤ـ أ. سافيدرا، E. SAAVEDRA، جغرافية إسبانية عند الإدريسيّ، مدريد، ١٨٨٥.

٥ـ هنري بيرس، H. PERES، إفريقية الشماليّة والصحراويّة في «نزهة المشتاق»، الجزائر، ١٩٥٧.

٦ـ لامار، LAMARE، وصف الإدريسيّ لجامع قرطبة، الجزائر، ١٩٤٩.

٧ـ روزنمولر ROSENMULLER، وصف الشام عند الإدريسيّ، ليبزك، ١٨٢٨، وقد أعاد طبعه وترجمه إلى الألمانيّة ج. غولدمايستر، J.GOLDMEISTER، ونقله ر.أ. براندل، R.A.BRANDEL، إلى اللغة السويديّة، وأدخله ن.أ. مدنكوف، N.A. MEDNICOV، في كتابه تاريخ فلسطين من الفتح العربيّ إلى الحروب الصليبيّة.

٨ـ ودرس المستشرقان أماري وشيابارلي AMARI et SCHIAPARELLI، ما يتعلّق بإيطالية، واهتمّ ج. فورلاني، G.FURLANI، ببحر الأدرياتيك،

وس. ف. زيسولد، C.F SILVBOLD، بمدينة تريستا، وج. ساردي، G.PARDI، ببعض المدن الإيطاليّة. ونشر أماري AMARI ما يخصّ إيطالية وصقلّية في ليبزك، سنة ١٨٥٧.

٩ـ و. توماشك، W.TOMASCHEK، البلقان عند الإدريسيّ، فينة، ١٨٨٧.

١٠ـ ب. ك. ندكوف، B.C.NEDKOFF، بلغارية والأراضي المجاورة لها عند الإدريسيّ.

١١ـ أ. ج. تالغرين ـ توليو، و أ. م. تالغرين O.G. TALLGREN – TUU-LIO et A.M. TALLGREN، فنلندة وبلدان البلطيق الشرقيّة في كتاب الإدريسيّ، هلسنكي، ١٩٣٠.

١٢ـ و. هونرباخ، W. HOENERBACH، ألمانية والبلدان المجاورة لها في كتاب الإدريسيّ، ١٩٣٨.

١٣ـ ت. ليويكي، T. LEWICKI، بولونية والبلدان المجاورة لها في كتاب الإدريسيّ، كراكو، ١٩٤٥ ووارسو، ١٩٥٤.

١٤ـ أ. ف. ل. بيستون، A.F.L. BEESTON، الجزر البريطانيّة في كتاب الإدريسيّ، ١٩٥٠.

١٥ـ د. م. دنلوب، D.M. DUNLOP، سكوتلندة عند الإدريسيّ.

١٦ـ مقبول أحمد، S. MAQBUL AHMAD، الهند والبلدان المجاورة لها في كتاب «نزهة المشتاق»، ليدن، ١٩٦١.

١٧ـ إبراهيم شوكت، العراق والجزيرة من «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الإدريسيّ، بغداد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣.

١٨ـ حمد الجاسر، الجزيرة العربيّة من كتاب «نزهة المشتاق»، مجلّة العرب، ١٩٧٠ ـ ١٩٧١. ونشر إبراهيم شوكت: جزيرة العرب من «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، ١٩٧١.

ويثير هذا الاهتمام الواسع بكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق قضيّة تقويم هذه الموسوعة في الأوساط العلميّة، وما أبداه الباحثون من آراء في هذا الشأن عبر العصور.

تقويم كتاب «نزهة المشتاق في احتراق الآفاق»

ففي القرن الرابع، قدَّر مؤلفون عرب عمل الإدريسيّ حقّ قدره، ولو أخذوا عليه هنات جزئيّة قليلة، اعتبرناها نقاط ضعف عنده على أساس معارف القرن العشرين. فابن فضل الله العمري (÷٧٤٩هـ/١٣٤٩م) نقل في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار عن الإدريسيّ ما يتعلّق بصقلّية وإيطالية، ثمّ قال: «والإدريسيّ الذي عني بمعرفة البلاد، وصنّف كتابه الموسوم بـ نزهة المشتاق، وهو أصحّ كتاب في هذا الباب...». لكنّه عارضه في فكرة انعدام العمران عند درجة العرض ٦٤ شمالاً. وذكر ابن خلدون (÷٨٠٨هـ/١٤٠٦م) في كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر أنّ الإدريسيّ مصدره الجغرافيّ الأساسيّ فيه، وقال: «نحن الآن نوجز القول في ذلك، ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كلّ جزء منها (الضمير عائد إلى الأقاليم السبعة وأجزائها)، ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألّفه العلويّ الإدريسيّ الحمّوديّ لملك صقلّية من الفرنج، وهو رجّار بن رجّار». إلاّ أنّه خالفه في فكرة انعدام العمران جنوبي الاستواء، وجعله قليلاً جدًّا. كذلك، اقتبس القلقشندي (٨٢١هـ/١٤١٨م) عن الإدريسيّ وأثنى عليه. ورأى أبو الفداء (÷٧٣٢هـ/١٣٣١م) أنّ الإدريسيّ «حذا حذو ابن حوقل في عدم التعرّض إلى تحقيق الأسماء والأطوال والعروض»، لأنّ «... مع الجهل بالأطوال والعروض، يجهل سمت ذلك البلد، فلا يعرف الشرقيّ منها ولا الغربيّ ولا الجنوبيّ ولا الشماليّ».

وفي القرن العشرين، مال مقبول أحمد إلى الظنّ بأنّ الإدريسيّ رفض فكرة كرويّة الأرض لأنّه قال: «والأرض في ذاتها مستديرة، لكنّها غير صادقة الاستدارة، فمنها منخفض ومرتفع، والماء يجري فيها من أرفعها إلى أخفضها». ولعلّ خير تقويم لنزهة المشتاق جاء على لسان حسين مؤنس، حيث قال: «يمثّل الإدريسيّ القمّة التي وصل إليها العلم الجغرافيّ في الشرق والغرب على السواء... فهو أوّل جغرافيّ في التاريخ نظر هذه النظرة العامّة، وسما إلى مفهوم عالميّ للجغرافيّ، وحُقّ له بذلك أن يوصف بأنّه أعظم جغرافيّ ظهر في

وأجمع المستشرقون في دراساتهم الجزئيّة التي عدّدنا بعضها منذ قليل على الإشادة بكتاب نزهة المشتاق. فأعجب به أتيين كاترمير (+١٨٥٧) واعتبر أنّه «يضمّ معلومات لا يعثر على مثلها في أيّ مصنّف آخر ألّفه العرب». ورأى جوزيف توسين رينو (١٨٦٧م) أنّنا «إذا نظرنا إلى كتابه (أي كتاب الإدريسيّ، النزهة) في مجموعه، تبيّن لنا أنّه ـ مثل عمل سترابون ـ أثر رفيع من آثار العلم الجغرافيّ». وأكّد وليام مالك كوكغين دي سلين (+١٨٧٩) أنّ «الإدريسيّ قام بجدارة كبيرة بعمل ضخم لا مثيل له قبله في موضوعه». ويجزم ميشيل أماري (١٨٨٩م) أنّ «عمل الإدريسيّ يأتي في طليعة ما صنّفه المؤلّفون في الجغرافية في العصر الوسيط». وينضمّ ميكايل جان دي خويه (+١٩٠٩م) وريناهارت دوزي (+١٨٨٣م) إلى سائر العلماء ويطريان مثلهم على كتاب نزهة المشتاق، لاحتوائه معطيات جغرافيّة عن بلدان أوروبّة، ويأسفان في الوقت ذاته لما فيه من نقص معلومات عن البلدان الشرقيّة.

ولأغناتي يوليانوفتش كراتشكوفسكي (+١٩٥١) رأي خاصّ في الإدريسيّ، يقول فيه: «وهو ـ أي الإدريسيّ ـ أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيّين قاطبة داخل الإطار العامّ لتطوّر الأدب الجغرافيّ العربيّ، بل ولا نستطيع أن نضعه في مصاف العلماء المبرزين الممتازين»[1].

لكن لم يلق رأي كرتشكوفسكي في الإدريسيّ أي صدى في الأوساط العلميّة، وثابر الباحثون على اعتباره سترابون العرب. منهم آنخل جنثالث بالنثيا الذي أخذ برأي رينو فيه، وقال: «وقد لُقّب الإدريسيّ «إسطرابون العرب» وهو يعتبر، بناءً على ذلك، أكبر جغرافيّ أطلعته القرون الوسطى»[2].

تلك كانت آراء المفكّرين والعلماء في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. فلتعرُّف نحن الآن عليه.

---

(١) إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ١٩٥٧، القسم الأوّل، آخر الصفحة ٢٧٩.

(٢) آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسيّ، تعريب حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٣١٤.

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»
موسوعة جغرافيّة عالميّة

أ ـ الموسوعيّة في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

لا نقصد بلفظ الموسوعة مفهومها الحديث في القرن العشرين، بل مدلولها في العصور القديمة والقرون الوسطى. وكانت تعني مؤلَّفًا يتضمَّن جميع المعارف الخاصّة بأحد العلوم أو بجميع العلوم في عصر معيَّن أو فترة زمنيَّة محدّدة. بالتالي، لا بدّ أن يحوي المؤلَّف الجغرافيّ القديم أو الوسيط كلّ المعارف الجغرافيّة العائدة إلى المعمورة بمعناها الواسع، أي جميع البلدان المعروفة، وكلّ المعارف العائدة إلى وضع كوكب الأرض الكونيّ وتمثيله، أو ما نسمّيه اليوم الجغرافية الفلكيّة أو الرياضيّة. وتتحقّق هذه الشروط في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق دون غيره من التصانيف الجغرافيّة العربيّة السابقة أو اللاحقة له، فاختلف عن كتب البلدان التي يتّضح من اسمها أنّها تتحدّث عن البلدان فقط، وعن كتب المسالك والممالك التي يقتصر موضوعها على الكلام عمّا سمّي دار الإسلام أو مملكة الإسلام أو بلاد الإسلام. وبذا يشبه هذا الكتاب جغرافية إيراتوستينس وجغرافية بومبونيوس ميلا، وجغرافية سترابون، وجغرافية بطلميوس، فحُقّ له أن يُسمَّى الموسوعة الجغرافيّة الخامسة في العالم، وحُقّ للإدريسيّ أن يُلقَّبه الباحثون المعاصرون بـ «سترابون العرب». فمن أين أتى الإدريسيّ بمعطيات «نزهته»؟

ب ـ مصادر «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

لم يُخفِ الإدريسيّ شيئًا من مصادره، وتحدَّث عنها في متن كتاب نزهة المشتاق بوضوح تامّ، وفي مقدّمة النزهة بطريقة أثارت جدلاً بين الباحثين. ويستحسن البدء بعرض أقواله عن مصادره في شرحه الأقاليم وأجزائها، ثمّ العودة في ما بعد إلى ما ورد في المقدّمة بهذا الشأن.

مصادر الإدريسيّ في نصّ «نزهة المشتاق»

ففي متن نزهة المشتاق، ذكر الإدريسيّ:

١ـ اثنين من جغرافيّي القرن التاسع الميلاديّ، هما:

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبه) مؤلّف كتاب المسالك والممالك، وورد اسمه عنده ابن خرداذبه باختصار أربع مرّات في الصفحات ٩٩، و١٨٣ و٥١٨ و٩٣٤.

واليعقوبيّ (أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبيّ) مؤلّف كتاب البلدان. وأشار إليه مرّة واحدة في ص ٣٨٣، وقال عنه إنّه أحمد بن أبي يعقوب، صاحب كتاب المسالك والممالك.

٢ـ وأربعة من جغرافيّي القرن العاشر الميلاديّ، وهم:

قدامة بن جعفر مؤلّف كتاب الخراج وصنعة الكتابة. وسمّاه مرّة واحدة في ص ٣٤ في سياق كلامه عن نهر النيل، وأحال إلى كتابه «الخزانة لقدامة».

وأبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعودي، وسمّاه «أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي» مرّة واحدة في ص ٨٢٩ في سياق كلامه عن جبل القبق (القفقاس) (ولعلّ ذلك تلميح ضمنيّ إلى مروج الذهب أو التنبيه والإشراف). ودعاه أيضًا صاحب كتاب العجائب تسع مرّات في الصفحات ٣٤، ٥٠، ٩٩، ١٠٤، ١٠٧، ٢٠٤، ٨٣٢، ٨٤٨، ٩٦٢.

وأبو عبدالله محمّد بن أحمد الجيهاني، مؤلّف كتاب المسالك والممالك، وسمّاه الجيهاني ثلاث مرّات في الصفحات ٧٦، ٩٣٤، ٩٦١.

ومحمّد بن حوقل، مؤلّف كتاب المسالك والممالك، المعروف أيضًا بكتاب صورة الأرض. وسمّاه الحوقلي خمس مرّات في الصفحات ٤٠، ١٧٧، ٨٢٩، ٩١٧، ٩١٨.

٣ـ وقلوديوس بطلميوس وسمّاه بطلميوس في ص ١٠٣، وبطلميوس الأقلوذي، وذكر كتابه الجغرافية مرّتين في ص ٤٣ و٩٣٩.

٤ـ وأحال إلى خمسة مصادر أخرى، هي:

رحلة سلام الترجمان إلى الأصقاع الشماليّة في عهد الخليفة الواثق بالله، وشرحها بشيء من التفصيل من ص ٩٣٤ إلى ص ٩٣٨.

وكتاب الحيوان للجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) مرّة واحدة في ص ٧٥.

وكتاب الطِّيب لإبراهيم بن المهدي مرّة واحدة في ص ٦٦.
وكتاب العجائب لحسّان بن المنذر مرّة واحدة في ص ٤٣.
وكتاب الأخبار عن ملوك الأمصار في ص ٢١٢، بلا تسمية المؤلِّف.

٥ـ واعتمد على كتب أخرى أيضًا، قال عنها:
إنّها كتب تحدّثت عن إحدى المغاور (ص ٨٤٨ و٩٣٤).
أو إنّها كتب مؤلّفة في فنّ الجغرافية (ص ٤٢).
أو إنّها الكتب الصحيحة الأخبار (ص ٢١٢).
وعلى جماعة من المؤلّفين لم يسمّهم (ص ٩٩).

٦ـ ولم ينس: المخبرين (ص ٩٢١)، ولا الأخبار المنقولة له (ص ٨٥٠، ٨٥١، ٩٣٤)، ولا أخبار التجّار (ص ٩٤)، ولا أخبار التجّار المتجوّلين (١٠٨)، ولا أخبار التجّار المسافرين إلى الهند (ص ٢٠١).

وهكذا يلاحظ القارئ أنّ نصّ كتاب نزهة المشتاق توسّع في ذكر مصادره، وأعطى أحيانًا أسماءها وأسماء مؤلّفيها معًا، واكتفى أحيانًا أخرى بالإشارة إليها إشارة عابرة، وأبان أيضًا أنّ أهمّيّة النقل الشفهيّ على ألسنة أهل الخبرة لا تقلّ فيه عن أهمّيّة التدوينات المكتوبة.

لكن ماذا قال الإدريسيّ عن مصادره في مقدّمة نزهة المشتاق؟

مصادر الإدريسيّ في مقدّمة «نزهة المشتاق»

وردت في مقدّمة نزهة المشتاق ثلاث فقرات، أكّدت أولاها أنّ الملك رجّار الثاني أراد معرفة موقع مملكته ومواقع الممالك الأخرى في أقاليم الأرض، وتوزيع جميع أقسامها عليها، حسبما جاء في كتب الجغرافية من أمثال: ١ ـ كتاب العجائب للمسعودي، ٢ ـ وكتاب أبي النصر سعيد الجيهاني، ٣ ـ وكتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبه، ٤ ـ وكتاب أحمد بن عمر العذري، ٥ ـ وكتاب أبي القاسم محمّد الحوقلي البغداديّ، ٦ ـ وكتاب خاناخ الكيماكي، ٧ ـ وكتاب موسى بن قاسم القردي، ٨ ـ وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي، ٩ ـ وكتاب إسحاق بن الحسين المنجّم، ١٠ ـ وكتاب قدامة البصري، ١١ ـ وكتاب بطلميوس الأقلوذي، ١٢ ـ وكتاب أروسيوس

الأنطاكيّ. فلم يُرضه ما حوته الكتب الجغرافيّة عامة. ولا هذه الكتب الاثنا عشر وحدها خاصّة، بدليل قول الإدريسيّ حرفيًا: «بطلب ما في الكتب المؤلّفة في هـذا الفنّ (أي الجغرافية) من علم ذلك كلّه مثل كتاب العجائب للمسعودي...»[1].

وروت الفقرة الثانية أنّ هذا العامل لم يصل إلى غايته المنشودة، فاستقدم إليه جغرافيّي بلده، وتداول معهم في هدفه، فتساوت معارفهم ومعارف الكتب الجغرافيّة. مع ذلك لم ييأس، فقام بخطوة أخرى، فـ«أحضر العارفين» ببلاده، «المتجوّلين بها»، ودوّن ما أجمعوا عليه من أخبار، ورفض ما اختلفوا فيه، ودام هذا العمل ١٥ عامًا.

وتخبرنا الفقرة الثالثة أنّه أمر عندئذٍ: ١ ـ «أن تُفْرَغ له من الفضّة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم، ٢ ـ وأن يؤلّفوا كتابًا مطابقًا لما في أشكالها وصورها، غير أنّه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد...»، ٣ ـ وأن يُسمّى هذا الكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. فنُفّذت أوامره، وانتهى الكتاب سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م.

وقد أثارت هذه الفقرات ثلاث قضايا: قضيّة مصادر نزهة المشتاق، وقضيّة «دائرة الفضّة» أو «كرة الفضّة»، وقضيّة مؤلّف نزهة المشتاق.

١ ـ قضيّة مصادر «نزهة المشتاق»

ويسترعي الانتباه أنّ الكتب الاثني عشر عُدّدَتْ في المقدّمة كأمثلة على الكتب الجغرافيّة التي يرجع إليها عادة لمعرفة مواقع البلدان وتوزيعها على الأقاليم السبعة، ولم يذكر أنّها مصادر استقيت منها معارف نزهة المشتاق، كما ظنّ كثير من الباحثين العرب والأجانب. لكن إذا قورنت هذه القائمة بقائمة المصادر المذكورة في المتن على أنّها صراحة مصادر النزهة، لتبيّن أنّ الإدريسيّ اعتمد على سبعة منها، ولم يشر في نصّه إلى رجوعه إلى الخمسة الباقية أي إلى: ١ـ كتاب أحمد بن عمر بن يونس العذري الدلائي، المسمّى نظام المرجان في

(١) كتاب نزهة المشتاق، طبعة إيطالية، ص ٥ ـ ٧.

المسالك والممالك الذي لم يعثر على مخطوطة كاملة له.

٢ـ وكتاب خانانخ بن خاقان الكيميائيّ، وهو غير معروف حتّى الآن.

٣ـ وكتاب موسى بن قاسم القردي، وهو غير معروف أيضًا.

٤ـ وكتاب إسحاق بن الحسين المنجِّم، المسمّى آكام المرجان في ذكر الأماكن المشهورة في كلّ مكان، الذي نشرته أنجيللا كوداتسي عام ١٩٢٩.

٥ـ وكتاب أُروسيوس الأنطاكيّ P. OROSIUS وهو معروف ومترجَم إلى اللغة العربيّة، وفيه معلومات عن أوروبّة وبلدانها.

مع ذلك، لا تُستَبْعَدُ استعانة الإدريسيّ بهذه الكتب الخمسة لأنّه ذكر «الكتب المؤلَّفة في هذا الفنّ» أي الجغرافية، و«الكتب الصحيحة الأخبار» و«جماعة من المؤلِّفين» لم يعطِ أسماءهم. فهل تدخل هذه الكتب الخمسة ضمن هذه العناوين المبهمة؟ لن تحسم هذه المسألة إلاّ بعد مقارنة متن النزهة بمتون مصادرها الصريحة.

٢ ـ قضيّة «دائرة الفضّة» و«كرة الفضّة»

وورد في المقدّمة أيضًا أنّ رجّار الثاني «أمر أن يُفْرَغ له من الفضّة الخالصة دائرة مُفصَّلة، عظيمة الجرم، ضخمة الجسم». والمقصود بـ «أن يفرغ له» أن يُصَبّ [1].

وهذا النصّ واضح: فالأمر الملكيّ يقضي بصبّ «دائرة»، كبيرة (عظيمة الجرم، بكسر الجيم، لأنّ للجرم أقدارًا، كما في الأجرام السماويّة في الفلك)، وسميكة (ضخمة الجسم، لا رقيقته). ويُعزَى هذا الإلحاح على الكِبَر والسماكة إلى كثرة المعلومات الدقيقة المطلوب تثبيتها (نقشها) على هذه الخريطة المُسَطَّحة، على نحو ما جاء في تتمّة متن الإدريسيّ: «أمر (الفاعل الملك رجّار) الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة، ببلادها، وأقطارها، وسيفها وريفيها، وخلجانها وبحارها، ومجاري مياهها، ومواقع أنهارها، وعامرها وغامرها، وما

(١) جاء في لسان العرب: افرغ الذهب أو الفضّة وغيرهما من الجواهر الذائبة: صبّها في قالب. ومنه درهم مُفْرَغ: مضروب غير مضروب. وضرب الدرهم طبعه.

بين كلّ بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المعروفة، والأميال المعدودة، والمسافات المشهودة، والمراسي المعروفة»[1].

لذلك اقتنع المستشرقان رينو وميلر بأنّ الإدريسيّ نفّذ رغبة العاهل النورماني، فرسم خريطة العالم على القرص الفضّيّ المصبوب، وضمّنها التفاصيل المحدّدة.

لكن وردت في تاريخ الصفدي فقرة نصّت حرفيًّا على ما يلي: «وهو - أي رجّار ملك الفرنج - الذي استقدم الشريف الإدريسيّ، صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، من العدوة إليه، ليضع له شيئًا في شكل صورة العالم. فلمّا وصل إليه، أكرم نزله، وبالغ في تعظيمه. فطلب (الإدريسيّ) منه (رجّار) شيئًا من المعدن ليضع منه ما يريد (رجّار). فحمل إليه من الفضّة الحجر، وزن أربع مائة ألف درهم.[2] فصنع (الإدريسيّ) منها دوائر كهيئة الأفلاك، وركب بعضها على بعض، ثمّ شكّلها له على الوضع المخصوص، فأُعجِبَ بها رجّار».

ودرس رينو وميلر هذه الفقرة واستنتجا منها أنّ الإدريسيّ صنع لرجّار كرة أرضيّة من فضّة، إضافة إلى الخريطة المسطّحة الفضّيّة.

وخالف حسين مؤنس وأحمد سوسة رأي المستشرقَيْن السابقَيْن، واعتبرا نصّ الصفدي متمّمًا لنصّ الإدريسيّ وإيضاحًا له، وقالا إنّ الإدريسيّ صنع كرة فضّيّة فقط. وعظّما إنجازه مع أنّ صنع الكرات عمل عاديّ قام به علماء كثيرون قبل الإدريسيّ وبعده وفي أيّامه.

أمّا حسم الموضوع وترجيح أحد الرأيَيْن على الآخر أو قبولهما معًا، فأمر

---

(١) مقدّمة النزهة، ص ٦.

(٢) إستعملت اليونان قبل زمن السيامّيّ سولون الدرهم الفينيقيّ (٤٨،٦غ)، والدرهم الفارسيّ (٣٢،٤غ)، وبعد سولون درهمًا يساوي ستّة أوبولات أي ٣٢،٤ غ. لكن ساد عندهم درهم واحد (٤١،٣ أو ٤٢،٣غ) بعد الإصلاح البطلميوسيّ لتوحيد الأوزان بين مصر واليونان. واستعملت أثينا درهمًا لوزن الفضّة وزنه ٤،٣٢ غرامات. ولعلّ هذا الأساس يكون وزن كرة الإدريسيّ إن صحّ أنّه صنع كرة: ٤٠٠،٠٠٠ درهم × ٤،٣٢ غ = ١٧٢٨كغ، ثلثها ٥٧٦ كغ لأنّ الإدريسيّ استعمل ثلث فضّة الملك، أو ٤٠٠ رطل × ١١٢ درهم = ٤٤٨٠٠ × ٤،٣٢ = ١٩٣،٥٣٦ كغ ثلثها ٦٤،٥١٢ كغ حسب الإدريسيّ.

يتطلّب الدخول في تفاصيل يطول شرحها. لذلك نحجم الآن عن هذا التحليل، ونرجئ البتّ في هذه القضيّة إلى وقت آخر. ونتساءل: مَن هو مؤلّف نزهة المشتاق في اختراق الآفاق؟

٣ ـ قضيّة مؤلّف «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

تضمّنت الفقرة الثالثة من مقدّمة نزهة المشتاق النصّ التالي: «بعث (رجّار) إلى سائر بلاده، فأحضر العارفين بها، المتجوّلين فيها، فسألهم عنها... فأمر أن يؤلّفوا كتابًا مطابقًا لما في أشكالها وصورها (الضمير عائد إلى الدائرة الفضّيّة)، غير أنّه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وغلاّتها، وأجناس بنائها وخواصّها، والاستعمالات التي تستعمل بها، والصناعات التي تنفق بها، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها، وحيث هي من الأقاليم السبعة، مع ذكر أحوال أهلها وميثاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيّهم وملابسهم ولغاتهم. وأن يسمّى هذا الكتاب بكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. وكان ذلك في العشر الأوّل من ينير الموافق لشهر شوّال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة. فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم». (١)

واضح من هذا النصّ: «فأمر أن... وأن يؤلّفوا كتابًا... وأن يسمّى نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، أنّ الواو ضمير الذكور في «يؤلّفوا» عائدة إلى «العارفين بها، المتجوّلين فيها». الذين يصبحون فاعل يؤلّف كتاب نزهة المشتاق.

إلاّ أنّ الإدريسيّ يستهلّ جغرافيّته الفلكيّة بقوله: «وأوّل ما ابتدئ به من ذلك، الكلام على صورة الأرض، المسمّاة بالجغرافية كما سمّاها بطلميوس ووصفها به، ومن الله نستمدّ المعونة والتوفيق والتسديد في كلّ منهج وطريق» (٢). وتتوالى التعابير بصيغة المتكلّم المفرد أو الجمع، وتدلّ جميعها على

(١) النزهة، المقدّمة، ص ٦ ـ ٧.
(٢) المرجع ذاته، ص ٧.

أنّ المؤلّف هو الإدريسيّ بلا ريب من ذلك: «فقول ...» (ص٧)، «وسنذكر منها بعد هذا ما اتّصل بنا علمه وصحّت الأخبار عنه» (ص ٩)، «وسنذكر ذلك في موضعه»، «وسنذكرها عند وصولنا إلى ذكرها» (ص ١٢)، «ومن العجائب ما سنأتي بأوصافه»، «ولمّا أردنا رسم هذه المدن... قسّمنا... ورسمنا» (ص ١٣)، «وسنذكر هذه البلاد عند بلوغنا إلى أمكنة ذكرها» (ص ٤١). ولا يخلو جزء من كتاب نزهة المشتاق من إشارة تفيد أنّ الإدريسيّ مؤلّفه، خلافًا لما جاء في المقدّمة. من ذلك، «وقد ذكرنا في هذا الجزء ما يحتاج إليه مستقصى» (ص ١٢٠)، «ونحن واصفون الآن جميع ما ذكرناه من ذلك وصفًا تامًّا باستقصاء وشرح متقن» (ص ١٣٢)، «وهذا شيء عايناه بها (أعمال)... وأمّا الآن في وقت تأليفنا هذا الكتاب...» ص (٢٣٢)، «والمهدية في حين تأليفنا هذا الكتاب...» ص(٢٨٢)، «وبقي بأيديهم إلى وقت تأليفنا لهذا الكتاب» ص (٢٦٠)، «والمرية في هذا الوقت الذي ألّفنا كتابنا هذا فيه، صارت ملكًا بأيدي الروم» (ص ٥٦٣)، «وملكه لا يزيد على الأيام إلاّ رفعةً وعلوًّا وشماخةً وسموًّا إلى حين تأليفنا لكتابنا هذا» (ص ٥٦٠)، «وهم الآن في حين تأليفنا لهذا الكتاب قد تغلّبوا على برطاس» (ص ٩٢٠).

ج ـ مخطّط كتاب «نزهة المشتاق» ومواضيعه

ويلاحظ قارئ كتاب نزهة المشتاق مباشرة أنّه منقسوم إلى مقدّمة وجغرافية فلكيّة وجغرافية وصفيّة.

فالمقدّمة قصيرة لا تتجاوز خمس صفحات.

والجغرافية الفلكيّة أطول منها بقليل، وتضمّ سبع صفحات فقط.

وتمثّل الجغرافية الوصفيّة، أو الإقليميّة بلغتنا الحاضرة، جلّ ما فيه، وتتوزّع على تسع مائة واثنتين وثلاثين صفحة، وصفت الظاهرات الجغرافيّة في أقاليم الأرض السبعة على أساس البلدان. وخصّ كلّ إقليم بعدد من الصفحات على الوجه التالي:

الإقليم الأوّل ٨٤ صفحة،

الإقليم الثاني ١١٢ صفحة

الإقليم الثالث ٣٠٥ صفحات
الإقليم الرابع ١٩٨ صفحة
الإقليم الخامس ١٢٧ صفحة
الإقليم السادس ٨٥ صفحة
الإقليم السابع ٢١ صفحة

كذلك قسّم كلّ إقليم إلى عشرة أجزاء، ورسمت «مصوّرة» (أي خريطة) لكلّ جزء، فتصبح جملة مصوّرات كتاب النزهة ٧٠ مصوّرة، أضيفت مصوّرة العالم إليها، ووضعت في أوّل الكتاب. وميزة هذه المصوّرات أنّها إذا جمعت قرب بعضها البعض، تؤلّف خريطة مفصّلة وكبيرة لوجه الأرض المعروف في زمن الإدريسيّ. وقد جمعت هذه المصوّرات فعلاً، وطبعت في خريطة واحدة.

وفي ما يلي نظرة إجماليّة إلى المواضيع التي تضمّنتها المقدّمة والجغرافيتان الفلكيّة والوصفيّة.

١ - مضمون المقدّمة

ويستهلّ الإدريسيّ مقدّمته بالبسملة، وإبراز عظمة الباري تعالى في الخلق والخليقة. ثمّ ينتقل إلى مدح أعمال الملك روجّار الثاني النورماني، واهتمامه بالعلوم، ورعايته لها، والثناء على وضعه برنامج لدراسة مملكته وممالك الدنيا، جغرافيًّا، ومثابرته على جمع المعطيات الأوّليّة عنها طيلة خمسة عشر عامًا، على يد «العارفين المتجوّلين» وتكليفهم برسم دائرة، وتأليف كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

٢ - مضمون الجغرافية الفلكيّة

ويفاجأ القارئ في مستهلّ الجغرافية الفلكيّة باستلام الإدريسيّ الكلام، وإعلانه أنّه هو الذي يُصنّف الكتاب، خلافًا لما جاء في المقدّمة.

ويبدأ حديثه بوصف كرويّة الأرض، وينضمّ إلى جمهرة العلماء، ليقول:

[illegible] الأرض [illegible] وكذا طبيعيًا لا يفارقها. والأرض والماء مستقران في جوف الفلك، كالمحة في جوف البيضة»[1]. ويشير إلى تقسيم الأرض إلى نصفيّ كرة بخطّ الاستواء، الذي تبلغ استدارته ٣٦٠ درجة باعتبار الدرجة ٢٥ فرسخًا، أي ٩٠٠٠ فرسخ، يقابلها ١١٠٠٠ فرسخًا عند الهنود، و١٢٠٠٠ فرسخًا عند هرمس.

ويحصر العمارة على وجه اليابسة بين خطّ الاستواء ودرجة عرض ٦٤ شمالاً، ويرى أنّ الباقي خلاء لا عمارة فيه في نصف الكرة الشماليّ لشدّة البرد. ويقول إنّ نصف الكرة الجنوبيّ غير مسكون ولا معمور لشدّة حرّه.

ويتحفّظ على استدارة الأرض، ويعتبرها غير صادقة، بل فيها مرتفعات ومنخفضات. ومعنى هذا التعبير أنّه مع الجغرافيّين العرب الذين يقولون إنّ الأرض مدوّرة بالكلّيّة، مضرّسة بالجزئيّة.

ويقسم الجزء المعمور في نصف الكرة الشماليّ إلى سبعة أقاليم، تحدّدها خطوط وهميّة تذهب من المشرق إلى المغرب، وتوازي جميعها خطّ الاستواء، ويتميّز كلّ منها بمدن وقرى وحصون وجبال ووهاد وعيون وأنهار ومعادن ونباتات وحيوانات.

ويذكر أنّ سبعة أبحر تخترق السبعة الأقاليم، أوّل بحر كبير منها البحر الصينيّ (= المحيط الهنديّ) الذي يتفرّع عنه الخليج الأخضر أو بحر فارس، وخليج القلزم. والبحر الكبير الثاني معروف بالبحر الشاميّ الذي يتشعّب منه خليج البنادقيّين وبحر نيطس (بنطس). ومن تلك البحار بحر جرجان والديلم الذي لا يتّصل بالبحار الأخرى.

وينتهي إلى القول بأنّه سيتحدّث بالتفصيل عن الأقاليم السبعة بعد تقسيم كلّ منها إلى عشرة أجزاء، قد رَسَم لها سبعين «مصوّرة» ليرى الناظر عيانًا على الخريطة ما هو موصوف له في النصّ. وأضاف إلى هذه المصوّرات خريطة العالم ووضعها في أوّل نزهته. ويوضح هذا النهج الارتباط الوثيق بين مصوّرات نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وبين متنه الموزّع على سبعين جزءًا.

---

(١) نزهة المشتاق، الطبعة الإيطاليّة، ص ٧.

٣ ـ نظرة إجماليّة إلى الأقاليم السبعة في «نزهة المشتاق»

ويأتي الإقليم الأوّل بعد الجغرافية الفلكيّة مباشرة، وتتوالى بعده الأقاليم الباقية تباعًا مع أجزائها. ويبيّن الجدول التالي أهميّة كلّ إقليم في كتاب نزهة المشتاق، على أساس عدد صفحاته. فالإقليم الثالث يأتي في الطليعة بثلث

مقارنة الصفحات المطبوعة
المخصّصة للأقاليم وأجزائها

الإقليم	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	المجموع
الجزء ١	٥	٦	٥٩	٥٨	١٣	٦	١	
الجزء ٢	٥	٦	٣٤	٤٤	٢٣	٢١	٥	
الجزء ٣	٥	٦	٧	٨	٢٩	١٠	٤	
الجزء ٤	١٠	١١	٣٠	٨	١٨	١٣	٤	
الجزء ٥	٦	١٨	٣٢	١١	١٢	٩	١	
الجزء ٦	١٠	١٦	٤٨	٢٩	١١	٨	٢	
الجزء ٧	٩	٢٠	٣٩	١٢	٦	٤	١	
الجزء ٨	١٢	١٣	٤٤	١٦	٦	٨	١	
الجزء ٩	٨	١١	٧	٧	٦	٥٠	١	
الجزء ١٠	١٤	٥	٥	٥	٣	١	١	
المجموع	٨٤	١١٢	٣٠٥	١٩٨	١٢٧	٨٥	٢١	٩٣٢

الصفحات تقريبًا، ويكاد يعادل صفحات الإقليمَيْن الرابع والخامس معًا، وقطعًا يزيد على صفحات الأقاليم الأوّل والثاني والسادس والسابع مجتمعين. بالتالي يتميّز الإقليم الثالث بالإعمار الشديد، وتتضاءل العمارة منه باتّجاه الشمال والجنوب.

ويلاحظ القارئ أنّ الإدريسيّ يكرّر في كلّ جزء من النزهة مخطّطًا لا يحيد عنه إلاّ نادرًا وجزئيًا. فهو يركّز على المدن ويتوسّع بصفاتها تبعًا لأهميّتها. ويُعنى

بذكر الجبال والأنهار والجزر أيضًا. ولا ينوته أن يصف النبات والحيوان والإنتاج الزراعيّ والمعادن متى وجدت والإنتاج الحرفيّ عند الضرورة. ويتطرّق أحيانًا إلى الحديث عن الشعوب والقبائل وأديانها وأزيائها وعاداتها.

ولا يتّسع مقالنا لتحليل كلّ أقاليم نزهة المشتاق، فنكتفي بموجز عن مضمون الإقليم الأوّل والإقليم الثاني، وباقي الأقاليم تجري مجراهما، وتسير على نسقها.

٤ ـ مضمون شرح الإقليم الأوّل

يقول الإدريسيّ إنّ الإقليم الأول يمتدّ من بحر الظلمات غربًا إلى البحر الصينيّ المسمّى بحر صنخي شرقًا. وفي أقصى غربه جزيرتان اسمهما الخالدات، في كلّ واحدة منهما صنم بني بالحجارة، طوله مائة ذراع. وهو يقسمه إلى عشرة أجزاء بدءًا من الغرب.

ويذكر خمسًا من مدن الجزء الأوّل، هي أوليل، وسل، وتكرور، وبريسي، ودو. ويعطي نبذة عن كلّ منها، ويشير إلى مواردها: الملح في أوليل وسل وتكرور وبريسي، والرقيق في دو الواقعة في أرض لملم، ويتحدّث عن غذاء أهلها وملابسهم، والمسافات في ما بينها.

ويستعرض ثماني مدن من الجزء الثاني، وهي ملل، وغانة الكبرى وتيرقى، ومداسة، وسغمارة، وغيارة، وغربيل، وسمقندة. ويقول إنّ ملل تربّي الإبل والمعز، وإنّ غانة الكبرى مدينتان مزدحمتان بالمسلمين ومياسير التجّار، وغنيّتان بالتبر، وإنّ تيرقى في جزيرة ونقارة الغنيّة بالذهب، وإنّ مداسة تزرع الأرزّ والذرة وتصيد السمك، وتتاجر بالتبر، وإنّ أهل سغمارة يربّون الإبل، وإنّ ماء غيارة قليل، وأهلها يغيرون على بلاد لملم، ويسبونهم، وإنّ سكّان غربيل تجّار يربّون الإبل، ويزرعون الذرة، ويصيدون الأسماك. أخيرًا لم تول سمقندة عناية كافية. ويبدو سياق آخر هذا الجزء مشوّشًا.

ويعدّد الإدريسيّ ثماني مدن شهيرة في الجزء الثالث، ويعطي نبذة عن كلّ منها، فيسترسل بعض الشيء في كلامه عن كوغة وكوكة (في بلاد السودان)،

وتغلمة وتوتة (بلاد النوبة)، ويوجز حديثه عن ماران (أرض الكاسم)، ورعاوة، وأنجيمي (نكانم) وتاخوة. ويتحلّل بعض التشويش القسم الأخير من هذا الجزء

ويضمّ الجزء الرابع بلاد النوبة، وبعض بلاد الحبشة، وبقيّة جنوب أرض التاجويّين وقطعة من بلاد الواحات الداخلة ومصر. لذلك أعرب الإدريسيّ عن عزمه على شرح خمس مدن مشهورة من النوبة، ومدينتَيْن من الحبشة، وثلاث مدن من مصر. وخصّ هذا الجزء بعشر صفحات، تناولت الخمس الأولى منها وصف مجرى النيل وبطائحه، ورواية ما يقال عن صنفَي تماسيحه، وعن أصناف أسماكه (٢٤ نوعًا)، التي يليها استعراض أربع مدن نوبيّة (كوشة، ودنقلة، وعلوة، وبلاق) فالحديث عن مدينة أسوان وجبل العلاقي (ذهب وفضّة)، فالواحات الخالية من السكّان، فمدينة مركطة. ويستغرب نقص شرح سوبة من النوبة، والنجاغة من الحبشة، واتفو والرديني من مصر، خلافًا لما أعلن عنه في مطلع هذا الجزء، علمًا أنّ النجاغة واردة في الجزء الخامس.

ويقتصر كلام الإدريسيّ في الجزء الخامس على أرض الحبشة. فهو يسهب في حديثه عن جنبية أكبر مدنها، ثمّ ينتقل إلى مدينة النجاغة، فمدنها الساحليّة (زالغ، ومنقوتة، واقنت وباقطي). ويصف في النهاية الأحباش وتربيتهم الإبل وتجارتهم بالرقيق، ويعرّف بأرض البجة (وادي العلاقي) وأرض النوبة بجوارهم.

ويبدأ الجزء السادس بذكر ثلاث مدن من أرض بربرة (قرقونة، مركة، النجا). ثمّ يستعرض أربع جزائر مقابل ساحل اليمن الجنوبي، هي خرتان ومرتان وسقطرى وقنبلى. ويفصّل أوضاع سقطرى، فيروي احتلال الإسكندر لها (أسطورة)، ونقله اليونان إليها، ومراحل جني صبرها وغلي عصارته وتصديره. ويخصّ اليمن بالصفحات الخمس الأخيرة من هذا الجزء، ويضمّنها معلومات موجزة عن مواردها وعن مدنها، لا سيّما زبيد وصنعاء وعدن وصعدة وسبأ ومأرب وحاسك ومرباط، مع شبام وتريم من حضرموت.

ويستهلّ الإدريسيّ الجزء السابع بالحديث عن بعض المدن الواقعة على

ساحل بلاد الزنج وساحل سفالة الذهب، وعن بعض الجزائر المقابلة لها. ويختمه بنبذة عن عجائب بحر هركند، فالمدن الساحليّة: بروة الكافرة، وبذونة القليلة العمارة، وملندة المعروف أهلها بصيد النمور والذئاب والحيتان وبالسحر أيضًا، ومنبسة الصغيرة الشهيرة باستخراج الحديد، والبانس آخر بلاد الزنج، وأخيرًا مدينة بتهنة من سفالة. أمّا الجزائر فهي جزائر الرانج (الزابج) ومنها جزيرة شريوة (سريرُه)، ثمّ جزيرة الدخان والنار، وجزيرة كرموه، وجزيرة القرود، وجزيرة القطربة. ومن عجائب بحر هركند سمك الوالي (البال حسب الجاحظ) واللشنك (اللشك)[1]، والسلاحف الضخمة (٢٠ ذراعًا)، وسمك السبح والعنقريس، والنطيق الطيّار، والهنس والعنبر. ويسترعي الانتباه في هذا الجزء اضطراب التسلسل وكثرة الإغفاء على التصحيف.

ويشمل الجزء الثامن الحديث عن مدينتَيْن صغيرتَيْن على ساحل سفالة، هما جنطمة ودندمة، الغنيّتان بالحديد الذي يصدَّر إلى الهند وجزرها. وتتبع مدن صيونة وبرخة وجسطة على حدود سفالة المليئة بالتبر الجيّد. ويلي ذلك وصف جزائر الدبيجات (أهمّها أنبونة) وملكتها[2] ومزروعاتها (النارجيل وقصب السكّر) وودعها، ثمّ جزيرة القمر الممتدّة من الدبيجات إلى جزائر الصين، بما فيها من نارجيل وقصب سكّر وتانبول، وما يبنى فيها من مراكب معروفة بالمشعيات (طولها ٦٠ ذراعًا، ولها ١٥٠ بحّارًا) ثمّ جزيرة سرنديب بمزروعاتها وأنواع يواقيتها وكثرة مدنها (١٤)، ومنها أغنا مقرّ ملكها، ثمّ جزيرة الرامي (الرامني)[3] بكركدناتها وعنبرها، فجزيرة لنكابالوس[4] بعنبرها ونارجيلها، فجزيرة البينهان (النيان) وتزويجها الرجال نساءًا بعدد ما يقتلون من أعدائهم[5]. وأخيرًا جزيرة جالوس؟ (الصحيح ملجان بحسب الوصف)[6]، وجزيرة كله. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى التقصير الصارخ في ضبط الأعلام الجغرافيّة.

(١) أنظر كتاب أخبار الصين والهند لسليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري ص ٣. وهذا يثبت أنّ الإدريسيّ ينقل أحيانًا دون أن يذكر مصدره.

(٢) أنظر أخبار الصين والهند، ص ٣١.

(٣) المرجع ذاته، ص ٣٢.

(٤) المرجع ذاته، ص ٣٢.

(٥) المرجع ذاته، ص ٣٢.

(٦) المرجع ذاته، ص ٣٩.

يتضمن الجزء ... مدينتي خمدان الواقعة في شماله، يليها مباشرة تعليق مقتضب عن أرض واق واق ومدينتيها الصغيرتين ددوا ومنهة وقريتها الكبيرة دغرعة، ثمّ عودة إلى وصف الجزائر، ومنها جابة وسلاهط وهزلج، التي يملكها عاهل واحد يتعبّد في البدود المليئة بالجواري الحسان[1] ويكثر فيها النارجيل والموز والقصب والأرزّ وبعض التوابل. ومنها أيضًا جزر مابط وتيومة (عود وكافور) وقمار (العود القماري) والصنف (العود الصنفيّ). ويتطرّق الإدريسيّ في ما بعد إلى ذكر مدينتيْ لوقين وخانقو. ويختم جزءه بالحديث عن جزر شامل وعاشورا وملاي التي تتّصل بالبحر الزفتي من آخر الصين.

ويشكّل الجزء العاشر من الإقليم الأوّل نهاية المعمور من جهة المشرق. ويتحدّث فيه الإدريسيّ عن بحر الصين، ويصف رياحه الموسميّة وتبدّل اتّجاهها كلّ ستّة شهور، ويعدّد بعض جزره مثل الموجة، وسيومة، والمايد، وصندى فولات، وبوصا، ولاسية، والسحاب، وملاي، وصنجي، وجزائر السيلا، وجزائر الواق واق. ويشرح مدّه وجزره بشيء من الإسهاب، وصناعة مراكبه. ويذكر ريح الخبّ الخبيثة، وعلامة هبوبها (أسطورة تطاير صبيان صغار في البحر يشبهون صبيان الزنج، سود، طول أحدهم أربعة أشبار) وسكونها (أسطورة حطّ طائر البهمن الذهبيّ على راس الصاري). ويشير إلى مراتب ملوك الهند والصين، وإلى أجناس أهل الهند السبعة، وإلى مذاهبهم الدينيّة الاثنين والأربعين. ويصف مراقي الصين (خانفو وخانكو).

ويتحدّث الإدريسيّ في نهاية الجزء العاشر عن ألوان أهل الإقليم الأوّل، وعن قلّة شعور البعض منهم، وقلّة معارفهم، وعن أشهر حيواناته: كالفيل والكركدن والزرافة والقرد... وعن معادنه الثمينة كالزمرّد والياقوت بأنواعه، وعن حيوانات بحره وأنهاره، وعن وجود الطيب والقرنفل والكافور فيه. ثمّ ينتقل إلى الإقليم الثاني.

---

(١) المرجع ذاته، ص ٨٧.

٥ ـ مضمون شرح الإقليم الثاني

ويستهلّ الإدريسيّ الجزء الأوّل من الإقليم الثاني بالتذكير بأنّه يتقيّد في سرد معارفه بنهج ثابت لا يتغيّر، فيكرّر أنّه يقسّم الإقليم إلى عشرة أجزاء ويُجمل في مطلع كلّ جزء ما سوف ينكبّ على تفصيله فيه. وبذا يُطْلِع مسبقًا مَنْ يهمّه الأمر على وجود مخطّط واضح يبيّن كلّ ما سيستعرضه في شروحه اللاحقة. فإذا ظهر نقص في النصّ بعد هذا التنبيه، عزاه القارئ إمّا إلى وجود إسقاط فات المحقّق الانتباه له أو إلى إرجاء بحث النقطة المقصودة إلى جزء آخر. كذلك إذا حصل تبديل أو تعديل في الترتيب المعلن عنه في مطلع الجزء بانَ التشويش أو اضطرابُ السياق، واقتضى البحث عن أسبابه.

وعلى الدوام، يبدأ أوّلُ جزء من أجزاء الأقاليم عند بحر الظلمات غربًا، وينتهي عاشرُها على مشارف بحر الصين في أقصى المشرق. وعلى هذا الأساس، يباشر الإدريسيّ وصفَ جزيرتَيْ مسفهان ولغوس من الجزر الخالدات[1]، استنادًا إلى كتاب عجائب المسعودي، ويذكر صنميهما، وعنبرهما، وحجر البهت فيهما. ثمّ يشير إلى خلوّ أرض مقزارة السودان من السكّان، وإلى خراب أرض قمنورية ومدينتَيْها قمنورى ونغيرا، وإلى علوّ جبلَيْ ماناں وبنبوان، وصعوبة عبور صحراء نيبر، وإلى أودغست في أرض غانة وضخامة الكمء فيها[2].

ويقول الإدريسيّ إن حيِّز الجزء الثاني من الإقليم الثاني، صحارى متّصلة، بعضها صحاصح مستوية، وبعضها جبال عالية جرداء، وكلّها تقريبًا خالية من المياه والنبات. وسكّانها أقوام رحّالة يربّون المواشي في أطرافها، والقلّة القليلة منهم أهل مدن يسرقون أبناء البدو وبناتهم، ويبيعونهم رقيقًا في المغرب الأقصى. ويذكر من تلك أرجاء الصحراويّة بلاد زغاوة، وأرض فزان. ويسكن قوم صدراته بلاد زغاوة، وفيها مدينة شامة الصغيرة، وجبل لونيا الشاهق،

(١) تناقض واضح بين ما ورد في مطلع الجزء الأوّل من الإقليم الأوّل (وفيه هناك جزيرتان تسمّيان بالخالدات، ص ١٧) وبين ما جاء هنا (وهما ـ مسفهان ولغوس ـ من الجزائر الستّ المتقدّم ذكرها، وتسمّى الخالدات).

(٢) أودغست مدينة في المغرب. ولا يمكن أن يرتكب الإدريسيّ مثل هذا الخطأ الجسيم. ولا يتعدّى الأمر كونه زيادة مسؤول عنها دسّ من الناسخ.

معظم قبيلة سعوة ونزل بعضهم بأرض وتربع الصحراء [illegible] شماليها، وهو شهير بسمله الكثير (قدر العصفور) وكثره حيثما عبر القافلة ويقع جنوبيه خراب مدينة نبرته. وتحوي أرض فزان مدينتيْ نـاوة وجرمه المتجاورتين اللتين تتعاطيان الزراعة المرويّة، وتستخرجان الفضّة من جبل جوجيس. ويرتفع جبل طمطه شرقيهما، وهو كثير الينابيع والعيون وتقطن حوله قبيلة آزقار البربريّة الشهيرة «بعلم الخطّ».

ويقتصر الكلام في الجزء الثالث على التعريف بأرض ودّان، والحديث عن معظم بلاد كوّار، وبعض بلاد التاجويّين، ومعظم بلاد فزان. فلم يبق في أرض ودّان بعد مجيء الإسلام إلاّ مدينة داود وسكّانها القلائل. وتقع مدينة زويلة شمالي داود. وفيها جبل طمطنة الغنيّ بالحديد الجيّد. وأرض كوّار شهيرة بالشبّ والنخل، ومن مدنها: القصبة، وقصر أم عيسى، وانكلاس (أهلها ملثّمون)، وأبزر (قربها بحيرة كبيرة فيها سمك البلق)، وتلملة[1]. وتربّي بلاد التاجويّين (سودان مجوس) الإبل، وفيها مدينة تاجوة وسمية[2] فقط. وتتّصل بأرض الواحات الخارجة ويشاهد فيها خراب مدينة نثرو، وتقوم فيها مدينة فرندة العامرة.

ويستعرض الجزء الرابع نهاية أرض التاجويّين، والواحات، وأرض الجفار والبحرين، وأرض سترينة ثمّ الدوية وبعض مصر. ويقول الإدريسيّ إنّ أرض التاجويّين فيه خالية من السكّان رغم وفرة مياهها، لأنّ رمالها متحرّكة تقضي على مظاهر الحياة. كذلك لم تعد الواحات الخارجة عامرة مع أنّ فيها جبل علساني الغنيّ بحجر اللازورد المسنور. أمّا الواحات الداخلة فيقطن فيها قوم من البربر، يزرعون النيلج. وسكّان أرض الجفار قلائل يعيشون في مدينتيْ الجفار والبحرين الصغيرتيْن. ويخصّ الإدريسيّ المراكز البشريّة في النوبة وصعيد مصر بثلثيْ هذا الجزء: ٢٦ مدينة وقرية أكثرها مبنيّ على ضفاف النيل.

وتدخل صحراء عيذاب، ومراسي بحر القلزم، وبعض جزره في الجزء الخامس الذي يفتتحه الإدريسيّ بوصف جبل المقطّم وما فيه من كنوز مال

(١) إسمها تملمة في الجزء الثالث من الإقليم الأوّل، ص ٢٩.
(٢) إسمها سمنة في الجزء الثالث من الإقليم الأوّل، ص ٣٠.

وجواهر. ثمّ ينتقل إلى مضارب البدو شرقيّه، وإلى صحارى عيذاب. ويسهب في كلامه عن عيذاب نفسها وعن عبور الحجّاج منها إلى جدّة بعد دفعهم المكس. ويشير إلى صعوبة الملاحة في بحر القلزم، ويسمّي جزيرتَيْن من جزره، هما النعمان والسامرى، وأشهر أنواع السمك فيه (اليهار، الخنجر، القرش)، ويشرح بناء المراكب فيه. ويذكر ما على ساحله الشرقيّ من مراسي: حلي، وسرين، والسقية، وجدّة، والجحفة، والجار. ويعطي تفاصيل وافية عن مكّة المكرّمة، ويعدّد الطرق الذاهبة منها إلى المدينة (يثرب) وإلى جدّة، وإلى صنعاء وصعدة. ويشير إلى القرى والمنازل والأودية التي يمرّ فيها سالكها. ويختم هذا الجزء بالحديث عن ساحل تهامة.

ويعلن الإدريسيّ في مطلع الجزء السادس عن عزمه على إدخال ٣٣ مدينة وقرية في بحثه. ويوزّعها في متنه على اليمن، وأرض حضرموت، وأرض المهرة، وبلاد عمان، وأرض اليمامة، ويضيف إليها بعض المراكز البشريّة الأخرى. فمن المدن والحصون المنسوبة إلى اليمن جرش وخيوان (خيران) ونجران، وكلّها شهيرة بدباغة الجلود ـ وبيشة، وظفار المسمّاة بحصب، وفيها قصر ريدان، وذمار وصنعاء، وحصون الثجة والجند وعلق، وقرية مأرب ـ وفيها قصر صرواح (قصر سليمان بن داود) وقصر القشيب (قصر بلقيس) وخرائب سدّ العرم ـ وفي أرض حضرموت تريم وشبام، وجبل شبام بحجارته الكريمة من عقيق وجمست وجزع. وتليها أرض المهرة، وقصبتها الشحر، برياحها العاتية، ورمالها المتحرّكة، ولسانها المستعجم، وتربيتها الإبل وتغذيتها بسمك الوزق وزراعة النخل فيها. وتتّصل بلاد عمان بالشحر، وتضمّ صور وقلهات، وفيها صيد لؤلؤ، ورأس الجمجمة ومصائد لؤلئه، وقرية دما وجودة لؤلئها العالية، ومسقط، وصحار بفواكهها المتنوّعة الطيّبة وتجارتها البحريّة النشيطة، التي تفهقرت إثر توقّف ارتياد مراكب الصين لها في أعقاب سيطرة جزيرة كيش (قيس) على الملاحيّة المحيطيّة (شهر شوّال ٥٤٨هـ/١١٥٤م) بأسطولها الضخم الذي كان يضمّ عددًا كبيرًا من السفن الملفّقة وخمسين مركبًا من المشحيات (يجذف في الواحد منها ١٥٠ بحّارًا). ويقع وادي أو نهر الفلح (الفلج) وراء صحار، ويصبّ قرب جلفار، ويسقي بلدَيْ سعال والعقر بجوار نزوة، ومنح وسرعمان على ضفافه عند أسفل جبل شرم. وفي بلاد عمان حيّة

العربد ودويبة القرد وفي جبالها كثير من القردة. ويخرج أهلها عن طريق عدن وجدّة بحرًا. وتتّصل أرض اليمامة (وهي العروض) ببلاد عمان، وحاضرتها الحضرمة الواقعة على وادي أفنان، ومن مدنها حجر وبرقة وسلميّة و١٧ مدينة أخرى معدُّدة تعدادًا فقط. وهنا يتطرّق الإدريسيّ إلى الطرق البرّيّة الذاهبة من عمان إلى البحرين، ومن اليمامة إلى مكّة، ومن اليمامة إلى البصرة. ويختم هذا الجزء السادس بنبذة قصيرة عن الخليج ودردوراته وبعض جزره (ابن كاوان، وكسير وعمير).

وينسج الإدريسيّ الجزء السابع على غرار ما فعل في الجزء السادس. فيذكر في مطلعه ٤٨ مدينة وسبع جزر يتوخّى الحديث عنها جميعًا، ويوزّعها على السند ومكران وبلاد المند. ففي السند الديبل، فرضتها ومحطّ مراكب الهند والصين وعمان فيها، وهي قريبة من نهر مهران ومن مدينة البيرون[1] الصغيرة. وفيها المنصورة[2] (باميرمان بالسنديّة)، الواقعة على ضفّة نهر مهران الغربيّة، وهي مدينة كبيرة، وفيها بشر كثير، وتجّار مياسير، وأموال ماشية وزروع، وحدائق وبساتين، وبناؤها باللبن والآجر والجصّ. وفيها أيضًا من المدن: بانية، وقالُري، وأنَري[3]، وسدوسان[4]، والجندرور[5] والسندرور[6]، ومنجابرى، وسمد، والملتان. وأهمّها الملتان الشهيرة بصنمها، والمسمّاة فرج الذهب والفرج الثغر. وتضاهي مدينة الرور الملتان بقدرها، فشرح الإدريسيّ وضعها، وتناول بعدها شروسان والحور، وانتقل فجأة إلى الحديث عن مكران ومدنها وأحوالها الاقتصاديّة. فاستعرض على التوالي اثني عشر مركزًا بشريًا فيها، هي: فَنزبور[7]، وكيز، وبزك، وراسك في رستاق الخروج، وبهّ،

---

(١) الأصل المطبوع: النيرون. التصويب من أبي الفداء.
(٢) المنصورية مرّة واحدة في النصّ المطبوع ص ١٦٦. لعلّه خطأ مطبعيّ.
(٣) النصّ المطبوع أثرى. التصويب من ابن حوقل.
(٤) سدوستان عند ابن حوقل.
(٥) الأصل المطبوع: الجندور. التصويب من ابن حوقل والمقدسي.
(٦) الأصل المطبوع: السندور. التصويب السندروذ من ابن حوقل.
(٧) النصّ المطبوع فيروز أو فيروس، والتصويب من ابن حوقل.

وبَيْد[1]، وقصرقند[2]، واصفقة[3]، وفهلفهرة[4]، ومشكى، والتيز، والبليس. وأكبرها كيز التي تقارب الملتان بالقدر. ثمّ يعود الإدريسيّ إلى طوران[5] في السند. وطوران واد فسيح فيه مزارع وبشر كثير، ونهر، قصبته مدينة طوران، ومن مدنه مجاك[6]، وكيزكانان، وسورة، وكشدان وماسورجان، وقزدار (أو قصدار). ومن مدن السند أيضًا قندابيل، وهي مركز بيع وشراء، ترتاده قبائل البُدْهَة التي تربّي الفوالج. ومنها أيضًا خور كجليا[7] وكوشه وقديرا.

ويوجز الإدريسيّ الكلام عن بعض مدن الهند مثل قامُهِلْ[8]. وكنباية، وسوبارة[9]، وسندان، وصيمور[10] وخابيرون، واساول. ويسمّي مدنًا أخرى، يرجئ وصفها إلى الجزء الثامن. ويذكر جزر أوبكين، والمند، وكيلم ملي، وسندان. ويصف بالتفصيل شجر الفلفل نقلاً عن ابن خرداذبه. ويختم الجزء السابع بعجالة عن تصنيف ملوك الهند والعالم، وعن ألقابها المتعارف عليها[11].

وخصّ الهند وحدها، بل بعضها، بالجزء الثامن، وقسّم عرضه إلى ثلاثة أقسام: المدن الساحليّة وعددها إحدى عشرة، والمدن البرّيّة أي الداخليّة وعددها ٢٥، والجزر الهنديّة وعددها أربع.

ويلاحظ أنّ المدن الساحليّة كاملة، وأنّ المدن الداخليّة ناقصة[12]. كذلك الجزر. على أنّ المعلومات ضئيلة جدًّا، والتسلسل مفقود، والأقسام

(١) النصّ المطبوع بند، والتصويب من ياقوت.
(٢) قصرقند عند ابن حوقل والمقدسي، قصر فيد عند ياقوت وأبي الفداء.
(٣) النصّ المطبوع: أصفقة، والتصويب من ابن حوقل والمقدسي.
(٤) النصّ المطبوع: فلفهرة. التصويب من ابن حوقل.
(٥) النصّ المطبوع: الطويران، والتصويب من ابن حوقل والمقدسي.
(٦) النصّ المطبوع: عياك، والتصويب من ابن حوقل.
(٧) النصّ المطبوع: خوكخليا، والتصويب من ابن حوقل.
(٨) النصّ المطبوع: مامهل. والتصويب من ابن حوقل.
(٩) سوفارة عند أبي الفداء.
(١٠) سيمور عند المقدسي، صيمور عند ابن حوقل.
(١١) أنظر أخبار الصين والهند، ص ٤١ ـ ٤٤.
(١٢) تضمّنت هذه المجموعة زويلة ولطة وأودغست. وهذه المدن مغربيّة لا هنديّة. ولا ندري كيف أقحمت في الهند. ولا يقبل العقل أن يرتكب الإدريسيّ مثل هذا الخطأ الجسيم.

شائه عنه في بعض مقدماته. خلافًا لـ «الإدريسي» يشوّش تشكيك القارئ، والأعلام الجغرافيّة بحاجة إلى تحقيق وتدقيق في معظم الأحيان.

مهما يكن، شرحت بروح أو بروص في صفحة تقريبًا، ونهروانة[1] في ثلاث صفحات تطرّق فيها إلى ركوب ملكها بلهرا في حاشيته، وإلى طقوس وفاته، وعادات الهند، إضافة إلى زروعها. وأوضحت أوضاع كابل في صفحة كاملة وبيُّف، وأوضاع قندهار في صفحة. وهذا يعني أنَّ أربع مدن استحوذت على نصف صفحات الجزء الثامن البالغة في ١٣ فقط.

وضمّن الجزء التاسع شرح أربع مدن هنديّة، وعشر مدن صينيّة، وجزيرتَيْن. ويبدأ بمدينة أوريسين والجزيرة التي تحمل اسمها. ويفرد لها ثلاث صفحات ونيِّفًا (ما يزيد على ربع صفحات الجزء الإحدى عشرة)، فيتحدَّث عن كثرة فيلتها، وعن طريقة صيدها لبيع أنيابها أو لاستخدامها في الحروب، وعن الراوند والشهكير والأحناش الملوّنة فيها. ويشرح مدينة خيفون الصينيّة في صفحة ونصف، ويتكلّم فيها عن ظباء المسك ودابّة الزباد. ويتخلّل هذا الجزء إيضاحات طفيفة عن بعض الأنهار الهنديّة والصينيّة، مثل نهر بهك وكلهى في الهند ونهر خمدان في الصين.

وتحدَّث في الجزء العاشر عن عشر مدن في شرقي الصين، وعن جزيرتَيْن فيه، وعن نهر خمدان ويشير في البدء إلى اشتهار سوسة الصين بغضارها وحريرها، وسعلا بفخارها وثيابها حريريّة على وجه التخصيص. ويشيد بعظمة نهر خمدان وكثرة العمران عليه (أسطورة شجرة الحديد الباسقة فيه، والرجل المستظلّ بها وبيده كتاب). ويذكر جزيرة النمنج ذكرًا فقط. ولا يستكمل ما أعلن عنه في مطلع هذا الجزء.

---

(١) النصّ المطبوع: نهروارة، والتصويب من أبي الفداء نقلاً عن ابن سعيد.